صورة المجتمع العربي عند الجاحظ

الدكتورة وديعة طه النجم
جامعة الكويت

الجاحظ ، هذا العلم الذي عرفته العربية في قرن يعد من ازهى فترات عمرها ، يقف شامخا في علمه ، قل ان يجود زمان من الازمة بمثله ، ولا يفي اي وصف بمقدار شخصه الذي حظي به الفكر والأدب العربي ايما حظوة .

ست وتسعون سنة ، سعيا وراء المعرفة دون كلل أو ملل ، وتفتحا ذهنيا مدهشا لجميع مصادرها اينما كانت سواء في السنة العجائز والصبيان ، او في رؤوس خيرة العلماء والمتكلمين ، او في بطون الكتب والمجلدات .

لست اغالي ان قلت انه اول كاتب في العربية يظهر هذا العطف وهذا الفهم لمجتمع ازدهر بشتى الألوان والاحوال، فكانت كتاباته قبسا يقبس لكل من يبتغي علما او ثقافة او تفهما لذلك المجتمع الذي ادرك ابو عثمان بصدق حسّه ادقّ خفاياه ، فضلا عما ظهر من صورها للعيان .

ومجتمع عصر الحاجظ صورتان مختلفتان ، لكل منهما طبيعتها واسلوبها في العيش وفي النظر الى الأشياء . فأما الاولى فهى اصل ، والثانية تالية عليها :

الاولى : مجتمع البادية .

والثانية : مجتمع الحاضرة .

البادية منبع العربية لغة وأدبا وشعرا ومثلا وحكمة وما شئت من صنوف المعرفة السليقية والطبيعية . والحاضرة بتطورها المادي الواسع وتعقد اسباب الحياة فيها ، في نشاطها لحضاري الفكري المتشعب في كل اتجاه وصوب .

وهما كلّ متكامل ، رغم ذلك البون الشاسع الذي صار يفصل ما بينهما في طبيعة حياتهما وفي العلاقات السائدة في كل منهما ، وفي المفاهيم التي يحملها اهلهما . هذا البون الشاسع بين البادية ببساطة حياتها وسلامة طبع اهلها في اللغة وفي النظر الى الاشياء ، والحاضرة بتعقد علاقتها وتفاوت طبقاتها اجتماعيا وفكريا . . . تجعل الاعرابي يحس بغربة في الحاضرة ـ اذا ما وفد عليها ـ، وتجعل اهل الحاضرة ينظرون نظرة خاصة الى الاعرابي الوافد على الحاضرة .

فالبادية ـ وهى المنبع الذي امدّ الحواضر بمادتها البشرية الاولى ، تبقى منبعا تستقي منه المثل التي تحكم علاقات المجتمع العربي، حتى بعد استقرار العرب في الحواضر واتصالهم بالامم وحضاراتها . وتبقى مصدرا ومثلا لكل ما هو اصيل في الطبع العربي من شيم المرؤة والخلق الكريم ، ومن طبع صاف وقريحة غير مشوبة في الشعر والخطابة وجميع فنون القول المرتجلة التي يستجيب لها الطبع بداهة .

على ان هذا كله شيء وصورة الحياة المادية شيء آخر ، فعيش اهل البادية لم يتعرض لتلك النقلة الواسعة التي تعرض لها عيش سكان الحواضر ، اذ ظل

اهل البادية اقرب الى الحاجة وشظف العيش منهم الى الاكتفاء وسد الحاجة .

هذا ما سنقف عنده فيما كتبه ابو عثمان وصوره بألوانه المتناقضة احيانا والمتآلفة احيانا اخرى .

لقد نشأ الجاحظ وعاش اكثر حياته في البصرة التي كانت بيئتها الطبيعية والفكرية مصدره الاول الاساسي الذي يستمد منه علمه وصوره بجميع مكوناتها وأشكالها . والبيئة البصرية مجتمع زاخر بشتى الوان النشاطات ، مادية اقتصادية تجارية صيرفية كانت ، ام فكرية جدلية ادبية لغوية مذهبية ودينية بجميع اتجاهاتها . كل ذلك في جمع مدهش بين مظاهر الحضارة في تعقيدها والبداوة في اصالتها . سواء في تركيبها الاجتماعي او في طبيعة العقلية البصرية التي تجمع بين الاستقلال والعقلانية في التفكير ، والحرية في الرأي الى جانب المحافظة على الاصالة العربية بطبعها وسليقتها وهى القريبة قربا طبيعيا من البادية .

وفي البصرة استقر اقوام من غير العرب ، فرسا كانوا او نبطا او افارقة او سواهم . كما كان اول استقرار للقبائل العربية فيها في اول عهد الفتوحات . فكان لهذا الاتصال الحضاري شأنه في بعث تلك الشرارات الملتهبة التي تنتج عن اي احتكاك مباشر بين عناصر ذات حدة وقوة في تصادمها ، وكانت تلك الصراعات المذهبية والقومية والفكرية التي اغنت الحركة الفكرية اجيالا من الزمن .

في هذا المجتمع نشأ الجاحظ ابو عثمان ، ومنه استقى علمه واستهدى بهديه العقلي والعلمي . ومجتمع البصرة ، على اية حال ، ليس الا المجتمع نفسه بعد الفتوحات والاستقرار مصغرا .

وفيما يلي ، اقف عند كل من الصورتين على انفراد ، كما صورهما ابو عثمان في كتاباته :

صورة البادية :

للبادية ، كما للحاضرة ، وجهان اساسيان : وجه الحياة المادية ، ووجه الحياة الفكرية والأدبية .

فأما حياة اهل البادية وعيشهم في مأكلهم ومشربهم وفي أدواتهم ، فلقد تناولها الجاحظ في صورتيها القديمة والمعاصرة له . تناولها قديماً في معرض الدفاع عن العرب وتراثهم النابع من حياتهم في الصحراء امام مآخذ المتعصبين من الشعوبية الذين عابوا على العرب كل ما يتصل بحياتهم الاولى من مظاهر مادية يومية أو من وسائل وادوات في حياتهم في السلم او في الحرب . ولقد توسع ابو عثمان في تناوله لهذه القضية وكتب مفصلا في الردّ على دعاوي الشعوبية . ولنقف عند مثل واحد مما يقوله في بعض ردّه ، لنتبين شيئا عن ذلك الصراع وشيئا عن موقف متكلم كأبي عثمان ينظر الى هذه الصراعات بعقلانية وموضوعية فذة . يقول :

« قالوا (اي الشعوبية) : وانما كانت رماحكم من مران وأسنتكم من قرون البقر ، وكنتم تركبون الخيل في الحرب اعراء . فإن كان الفَرسَ ذا سرج فسرجه رحالة من أدم ، ولم يكن ذا ركاب . والركاب من اجود آلات الطاعن برمحه والضارب بسيفه . وربما قام فيهما واعتمد عليهما . . . »[1]

ويردّ ابو عثمان على هذا القول بتتبع مدهش ، معللا كل ظاهرة بأسباب تتصل بحياة العرب وبالطبيعة العربية . يقول :

« . . . وأما ذكرهم للركبُ فقد اجمعوا على ان ركُبُ الحديد لم تكن في العرب الا في ايام الازارقة . وكانت العرب لا تعوّد انفسها اذا ارادت الركوب ان تضع ارجلها في الركب ، وانما كنت تنزو نزوا .

وقال عمر بن الخطاب (رض) : (لا تخور قوة ما كان صاحبها ينزو وينزع) . .

وقال عمر : (الراحة عقلة ، واياكم والسمنة فأنها عقلة) . . . ولذلك قال عمر حين رأى المهاجرين والانصار قد اخصبوا وهمّ كثير منهم بمقاربة عيش العجم : (تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الرُكُب ، وانزوا على الخيل نزوا)، وقال : (احفوا وانتعلوا، فأنكم لا تدرون متى تكون الجفلة) . وكانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرَحل ، فكيف تدع الركاب للسرج . ولكنهم كانوا وان اتخذوا الرُكُب فأنهم كانوا لا يتسعملونها الا عندما لا بدّ منه ، كراهة ان يتكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء والتفنُّخ ويضاهئوا اصحاب الترفة والنعمة . . . »[٢]

كذلك كان طبع العرب ، قريبا من الطبيعة بعيدا عن مظاهر الترف التي ربما اوثت البلادة في الجسم والفكر . ومن هنا ابتعد العرب عن كل ما من شأنه ان يميل بهم عن طبعهم الصافي الذي يأنف من طول الدعة والاسترخاء ، كما يأنف من الذل والصغار . ويعلل الجاحظ بذلك ايضا كراهة العرب لممارسة السوقية والكسب من رؤوس المكاييل والموازين ، كما يقول :

« وكذلك العرب ، لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا اطباء ولا حسابا ولا اصحاب فلاحة فيكونون مهنة ، ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية . ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس المكاييل ، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلدة والثروة التي تحدث الغرة ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ويصغر عندهم انفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم ، اذهان حداد

ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدّهم وجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآفاق وتعرّف الأنواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس واحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية وجازوا كل امنية ، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهممهم ارفع من جميع الامم وافخر ، ولأيامهم احفظ وأذكر . . . »[٣]

فهذا هو طبع العربي الذي خرجته الصحراء وجعلت منه فارسا وخطيبا وسيدا يعتز بمثله وقيمه ، فيضحي دونها بكل ما يملك .

ورغم بعد الشقة بين حياة البادية وحياة الحاضرة ، فقد ظلت البادية عند الدارسين منبعا لاستقاء اللغة والادب والمعرفة التي تخص البيئة العربية . والجاحظ الاديب المتكلم المعتزلي المَعنيّ بكل علم عرفه عصره ، يعدّ المعارف المنقولة عن العرب في المكانة الاولى بين مصادر المعرفة ، وهى عنده بمرتبة المعارف التي تقبس عن الفلاسفة والعلماء في عصره . يقول :

« وقلّ معنى سمعناد في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه او قريبا منه في اشعار العرب والاعراب وفي معرفة اهل لغتنا وملّتنا . . . »[٤].

ولا يقل علم العرب بالانواء او بالأثر والاهتداء بالنجوم عن ذلك ، يقول ابو عثمان :

« . . ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الارض والرمل وعرفوا الانواء ونجوم الاهتداء لأن كل من كان بالصحاصح الأماليس ، حيث لا امارة ولا هادي مع حاجته الى بعد الشقة ، مضطر الى التماس ما ينجيه ويؤويه . . . »[٥]

وهكذا تشكل البيئة العربية في مؤلفات الجاحظ مصدرا ثرا من مصادر

المعرفة ، لا في الادب واللغة والخبر فحسب ، بل في تلك الحكم التي صدرت عن تجارب في الحياة بعيدة المدى وفيما اختص به العرب من علم بيئتهم في جوها ورملها وحيواناتها وكل ما يتعلق بطبيعتها .

ويخص الجاحظ العرب بالبديهة والارتجال مع الطبع الصافي والقريحة المواتية في القول شعرا او نثرا . يقول :

« . . . وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة . وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام او حين يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير أو عند المقارعة او المناقلة او عند صراع او في حرب ، فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه احدا من ولده . وكانوا اميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون . . . فلم يحظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب . وان شيئا هذا الذي في ايدينا جزء منه لبا لمقدار الذي لا يعلمه الا من احاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون . . . »[٦]

فالعرب ان لم يتوارثوا العلم بالطريق التعليمي المعروف ولم يكتبوا هذه المعارف لتحفظ فانهم مارسوا العلم ممارسة وخاضوا غمار الحياة فأكسبتهم تجاربها . فكان علمهم علم فطرة وتجربة ودربة . ولا يقل هذا العلم اهمية عن اي علم يأتي بالمدارسة والكتابة والتعلم التلقيني .

على ان لأبي عثمان صفة تميزه عن كافة ادباء عصره ، لا يكاد يتخلى عنها في اي موقف مهما كان جادا او خطيرا . تلك هى ولعه العظيم بالفكاهة وتتبع اخبارها اينما كانت . ولقد اولع ابو عثمان بأحاديث الاعراب التي تصدر عنهم

بطبع وعفوية غير متعمَّلة او مفتعلة . وكان ربما حاورهم او ساءلهم وأتانا بأحاديث عنهم كأنه كتبها وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه او ضحكة خفية يهمس بها قلمه . يقول ناقلا احدى هذه الحكايات عن احد الاعراب :

« قال : وقلت مرة لعبيد الكلابي ، وأظهر من حب الابل والشغف بها ما دعاني الى ان قلت له ،ـ ابينها وبينكم قرابة ؟

قال : نعم ، لها فينا خؤولة . اني والله ما اعني البخاتي ولكني اعني العراب التي هى اعرب .

قلت : مسخك الله تعالى بعيرا !

قال : الله لا يمسخ الانسان على صورة كريم وانما يمسخه على صورة لئيم ، مثل الخنزير ثم القرد ».

ويعلق الجاحظ على الرواية قائلا : « فهذا قول اعرابي جلف ، تكلم على فطرته . . »[7]

وأحاديث الاعراب تشكل مصدرا مهما من مصادر كتابات الجاحظ ، سواء اريد بها الجد او الهزل ، هذا فضلا عن ان طول استماع حديث الاعراب الفصحاء البلغاء يثقف اللسان العربي ، وفي ذلك يقول ابو عثمان :

« . . . وأنا أقول انه ليس في الارض كلام هو امتع ولا آنق ولا الذّ في الاسماع ولا اشد اتصالات بالعقول السليمة ولا افتق للسان ولا اجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء . . . »[8]

على ان لغة اهل الحاضرة اختلطت اختلاطا بحيث كان الاعراب الفصحاء لا يفهمونها لمخالفتها للأصول العربية . وكذلك اختلفت مفاهيم اهل الحاضرة

في النظر الى الاشياء والحكم عليها متأثرة بطبيعة الحياة الحضرية . فلم يكن اختلاف الطبع والسليقة اللغوية وحده سببا لأحساس الاعرابي بالغربة في الحواضر ، بل ان الاختلاف يشمل جميع مظاهر الحياة المادية ، سواء في المأكل او الملبس او الادوات التي الفها الحضريون . وربما تدخلت هذه المظاهر المادية في اعتبارات ادبية كثيرة ، فيحكم على الفرد بحسن مظهره واناقته او بعكسهما . وقد يزري اهل الحاضرة على الاعراب لخشونة مظهرهم ومخالفتهم المألوف في الحياة الحضرية . على ان العرب تقول :

« . . . ان الرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالميزان ، وليست بمسوك يستقي بها وانما المرء بأصغريه بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان ، وان قال قال ببيان . . . »[٩]

هذا في جملة مفاهيم كثيرة تحورت في حياة اهل الحضر ولم تكن مألوفة لدى اهل البادية الذين حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم . ولقد ظل الاعرابي صاحب فطرة دالة دون ان يمعن النظر او يعمل الذهن ، هذا في الوقت الذي حفلت فيه الحواضر الاسلامية بشتى انواع الصراعات والجدل المذهبي من اجل الوصول الى الحقيقة الموضوعية .

ومن اجل ان تكتمل صورة المجتمع بوجهيه البارزين ، لا بد ان نقف عند الوجه الآخر ، وأعني به :

صورة الحاضر :

يحفل مجتمع عصر الجاحظ الذي نقل صورته في كتاباته بشتى النشاطات والفعاليات المدنية . فلقد خطت الحياة المادية خطوات واسعة ومتنوعة في مجال الفعاليات الاقتصادية ، تجارية او حرفية او صيرفية . . . يدل عليها وجود

انماط متعددة ومتنوعة من التجارات والحرف والصناعات . فالتجارات المتنوعة التي شاعت في المجتمع ووصفها الجاحظ في كتاباته لا تدل على مدى النشاط المتنوع الاتجاهات فحسب ، بل تشير أيضا الى طبيعة احتياجات الناس في حياتهم اليومية . وكما يُعني الجاحظ بذكر كبار التجار ممن كان يتاجر بالجوهر والحرير وما اشبه ، لا يفوته ان يذكر تجارا يتاجرون بالطيوروالقطط والحيات . . . ولهذه التجارات دلّالون وباعة . . . ورب سائل يسأل ما الحاجة الى وجود هذه الانواع من التجارات ، والجواب على ذلك يكمن في طبيعة تطور المجتمع الذي تعدّت احتياجاته مرحلة الكفاية الى طلب الترف والكماليات ، هذا فضلا عن احتياجات الطبقات المختلفة في المجتمع تبعا لمستوى حياتها . . . . ولعل مثلا واحدا من هذه الامثلة الطريفة الكثيرة التي ينقلها ابو عثمان بعناية وتتبع يكشف لنا ، لا عمّا وجد في مجتمعه من احوال فحسب ، بل عمّا كان عليه الجاحظ من تتبع لأحوال الناس اليومية . يحدثنا ابو عثمان بالخبر التالي يقول :

« ومررت يوما وأنا اريد منزل المكي بالاساورة ، واذا امرأة قد تعلقت برجل وهى تقول : بيني وبينك صاحب المسلحة ، فانك دللتني على سنور زعمت انه لا يقرب الفراخ ولا يكشف القدور ولا يدنو من الحيوان ، وزعمت انك ابصر الناس بسنور ، فأعطيتك على بصرك ودلالتك دانقا ، فلما مضيت به الى البيت مضيت بشيطان ، قد والله اهلك الجيران بعد ان فرغ منا . ونحن منذ خمسة ايام نحتال في اخذه ، وها هو ذا قد جئتك به ، فُرد عليّ دانقي وخذ ثمنه من الذي باعني ، ولا والله ان تبصر من السنانير قليلا ولا كثيرا . . »(١٠) فهذه المرأة ازادت مصيدة للفئران فاشترت سنورا ، فاذا به (مغشوش)، فصار شيطانا مريدا .

وللأفاعي تجار مختصون يجلبونها للأغراض الطبية ، يقول الجاحظ :

« وأكثر ما يجتلب اصحاب صنعة الترياق والحَواؤون الافاعي من سجستان ، وذلك كسب لهم وحرفة ومتجر . . »[11]

إن أصحاب الحرف في عصر الجاحظ متعددو النشاطات ، يختص كل جماعة منهم بصناعة قد يتوارثها الابناء عن الآباء ويختصون بها دون سواها جيلا بعد جيل . ولا يمنعهم عن ذلك قلة كَسبها او ضعتها في المهن والحرف . ولكل صناعة او حرفة نظام واصناف يشبه ما يعرف في عصرنا بالنقابات المتخصصة ، ولها اسواق مستقلة بأصحابها ورؤساء صنعة يرجع اليهم اصحاب الصنعة عند الحاجة . ويشيد الجاحظ ببعض خلائق اصحاب الحرف ، لما يلحظه فيهم من تآزر وتعاون عند حاجة بعضهم الى العون . على انه ، مع ذلك لا يبريء العامة من سوء الخلق في بعض ما يشهده فيهم تبعا لما تمليه عليهم ظروفهم الاجتماعية . ويلاحظ الجاحظ بحسّه الدقيق ان الانسان كلما عرض للذل ساء خلقه وزاد كبرا وتعاليا على من دونه . يقول :

« والكبر في الأجناس الذليلة ارسخ واعم . ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم . . . والجملة ان كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين ادْنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته ، على مراتب القدرة ، ما لا خفاء به . . وشيء قد قتلته علما ، وهو أني لم ار ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه . . . »[12].

وكما تتفاوت الحرف والصناعات في مقادير كسبها يتفاوت اصحابها في المنزلة الاجتماعية . ويلحظ الجاحظ ان اصحاب الحرف المتواضعة ـ مهما بذلوا من جهد ـ لا يمكن ان يجتمع في ايديهم المال ليبلغوا حد الثراء والسعة ، كما يبلغ كبار التجار او الصيارفة ، يقول :

« ولم ار سقاء قط بلغ حال اليسار والثروة ، وكذلك ضراب اللبن والطيان والحراث وكذلك ما صغر من التجارات والصناعات .

الا ترون ان الاموال كثيرا ما تكون عند الكتّاب وعند اصحاب الجوهر وعند اصحاب الوشي والانماط وعند الصيارفة والحناطين . . . وجمل الاموال حق بأن تربح الجمل من تفاريق الاموال . . . »[١٣] . فتبعا لنوع الحرفة او التجارة يكون الكسب ويكون المركز الاجتماعي والسلطان . ولقد كان بين التجار الكبار في عصر الجاحظ من يضاهي في قوة مركزه سلطان الخليفة نفسه .

ويذهب الجاحظ ـ كما تقدم ـ الى ان العرب كرهوا ممارسة التجارة والعمل في الاسواق حتى بعد الاستقرار في الحواضر ، ومن هنا كان عامة من يقوم على هذه التجارة من غير العرب الذين اوشكوا ان يختصوا بها . ويظهر الجاحظ ان كل قوم او جنس كان يختص بنوع من الأعمال اشتهروا فيه دون سواهم . فأهل السند اشتهروا بأعمال الصيرفة والحساب ، فصار الصيارفة لا يولون اكيستهم وبيوت صروفهم الاّ السند ، لأنهم وجدوهم انفذ في امور الصرف وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد ان يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني .

ولقد بلغ من تبرّك التجار بهم ان صيارفة البصرة، وبنادرة البربهارات لما رأوا ما كسب فرج ابو روح السندي لمولاه من المال والأرضين اشترى كل امريء منهم غلاما سنديا ، طمعا فيما كسب ابو روح لمولاه . . . »[١٤]

ويقول الجاحظ عنهم ايضا :

« . . . فقلّ صيدلاني عندنا الا وله غلام سندي . فبلغوا أيضا في البربهار والمعرفة بالعقاقير ، وفي صحة المعاملة واجتلاب الحرفاء مبلغا حسنا . . . »[١٥]

على ان مهارتهم في هذا العمل لا تعني انهم قادرون على كل انواع الاعمال . فهناك شبه تخصص لكل فئة في نوع العمل الذي تؤديه في المجتمع دون سواه ، يقول الجاحظ مؤكدا هذه الحقيقة :

« . . . وقد كان يحيى بن خالد اراد ان يحول اجراء الخيل عن صبيان

الحبشان والنوبة الى صبيان السند ، فلم يفلحوا فيه . وأراد تحويل رجال السند الى موضع الفراشين من الروم ، فلم يفلحوا . . . »[١٦]

وهكذا يختص كل جماعة بنوع من العمل يؤدونه ويعرفون به . ولـذلك كان الجاحظ يرى ان كل امة لها قابليات تتميز بها وتظهـر في ممارساتهـا وفـي اعمالها . وقد لاحظ الجاحظ بدقة نظره ان المجتمع العباسي الذي اشتمل على مجموع من الاقـوام ، كان يفـرق بينهـم بحسـب ما يظهرونـه من قدرات ومـا يشتهرون به من أعمال . فالطـب شاع فـي السريـان والنصـارى عامـة ، دون سواهم ، ولـم يفلح فيه الا هؤلاء ، فحازوا ثقتهم وانصرف الناس عمن سواهم ممن طلب هذه المهنة ، وحين نظر الجاحظ حوله فوجد عامة جند الخلافة الذين وثقت بهم في الطاعـة والقـدرة علـى القتـال من التـرك ، لا سيمـا في خلافـة المعتصم ، جعل قابلية القتال ميزة للترك دون سواهم . وهكذا عرف كل قوم في مجتمع الجاحظ بما اختصوا به او اشتهروا .

ولا يفوتنا ، مع كل ما تقدم ، ان نلحظ ما لحظه ابو عثمان من اثر الفارق الاجتماعي في نفوس الافراد او الجماعات في عصره ، مما ادى الى المنافسـة الاجتماعية او الى اتخـاذ مواقف في الحياة املاهـا الاحسـاس بهـذا الفـرق . فالموالي ، رغـم اقبالهـم الشـديد علـى النشاطـات الاقتصـادية في المجتمـع العربي ، ظلوا يحسون بأن هناك شيئا ينقصهـم في المنزلـة الاجتمـاعية ، وأن المجتمع لا يحترمهم الا اذا اثبتوا جدارة في جهة من جهات الحياة ، بالعلم او بالمال ، او ربما بادعاء النسب . فراح بعضهم يجمع المال ويحرص عليه ، علّه يصبح في عداد الاثرياء فيرقى في التقـدير الاجتمـاعـي . وقـد تنـاول الجاحـظ شخصيات من هؤلاء في كتاب (البخلاء) الذي افرده لظاهرة البخل في المجتمع وتتبع فيه اخبار البخلاء ونوادرهم ، كما تتبـع بدقـة آثـار المـال في العلاقـات الاجتماعية والعائلية ، وفي التصرفات الفردية . . . ومن بخلائه الذين يقفون مثلا

بارزا على هذا النمط ، شخصية ابي سعيد المدائني الذي كان معيّنا يقرض المال للناس ويسعى لكسب الفائدة على امواله ، ويحرص على جمع المال حرصا شديدا ، لا خوفا من الغوائل وتقلبات الزمان فحسب ، بل سعيا الى الحصول على احترام الناس . وأبو سعيد من صيارفة البصرة ومعينيها ، ومن مواليها كذلك . يقول محتجا لحرصه على المال ورغبته في الغنى :

« احببت الغنى بفضل بغضي للفقر ، وأبغضت الفقر بفضل انفتي من احتمال الذل »[١٧]

فالمال عند ابي سعيد طريق صاعد في الاحترام الاجتماعي المكتسب . واذا كان العربي فخورا بنسبه ، فالبخيل بالمال فخور بما يمكن ان يكسبه بما له وثرائه .

لقد عرض الجاحظ في بخلائه صورا ممتعة من هذه الطبقة التي شغلت بالمال عن كل ما عداه من تقاليد وخلق وعلاقات انسانية ، فاستطاع ان ينقل لنا ـ بنادرة وروح فكهة ـ ظاهرة من اخطر الظواهر في المجتمع العباسي ، هى ظاهرة الصراع بين العرب وغير العرب .

ولعل من ابرز الظواهر التي انتجها هذا الصراع ، اقبال الموالي على ادعاء نسب عربي ، طلبا للمنزلة او الشهرة او الاهتمام . . ولقد اشتهر بهذا الادعاء اسماء بارزة في عالم الشعر ، كأبي العتاهية وأبي نواس ومسلم بن الوليد ، وسواهم . . . . وتناول الجاحظ هذه الظاهرة بجد ، كما تناولها بهزل . ومما ينقله من طرائف هذه الجماعة ، انه كان يشاهد احد الموالي وهو يطيل الجلوس في الشمس لكي يشبه العرب ، فيدعي نسبا عربيا[١٨] . ويظهر الجاحظ عطفا على اولئك الافراد الذين يتشبثون بهذه الدعاوى ـ هازلا وجادا . فقد نسب اليه القول بأنه كان ربما اعجب ببعض الموالي في عملهم وخلقهم وسلامة طبعهم في اللغة وأدبهم ، فكان يرى انهم ـ بكل هذه المزايا ـ يستحقون ان ينتسبوا في العرب .

ولقد ناقش الجاحظ هذه الظاهرة في كتبه ورسائله ، وعرض لنا صورا حية من هذا الصراع تكاد تكون فريدة في دقتها وتتبعها . يقول أبو عثمان في احدى رسائله عن بعض صور هذا الصراع .

« وقد نجمت في الموالي ناجمة ، ونبتت منهم نابتة ، تزعم ان المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبي ﷺ (مولى القوم منهم)، ولقوله : (الولاء لحمة كلحمة النسب ، لا يباع ولا يوهب). قال : فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا اشرف من العرب ، وان الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم .

قالوا : فنحن معاشر الموالي ، بقديمنا في العجم ، اشرف من العرب ، وبالحديث الذي صار لنا في العرب اشرف من العجم . وللعرب القديم دون الحديث . ولنا خصلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخصلتين افضل من صاحب الخصلة .

وقد جعل الله المولى بعد ان كان عجميا ، عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل ، بعد ان كان اعجميا ، عربيا . ولولا قول النبي ﷺ ان اسماعيل كان عربيا ، ما كان عندنا الا اعجميا لا يصير عربيا ، كما ان العربي لا يصير اعجميا . فانما علمنا ان اسماعيل صيره الله عربيا بعد ان كان اعجميا بقول النبي ﷺ ، فكذلك حكم قوله : (مولى القوم منهم) وقوله : (الولاء لحمة)[19].

وأخيرا يعلق الجاحظ على هذه الاقوال ، قائلا :

« وليس ادعي الى الفساد ولا اجلب للشر من المفاخرة ، وليس على ظهرها الا فخور الا قليل . وأي شيء اغيظ من ان يكون عبدك يزعم انه اشرف منك ، وهو مقرّ انه صار شريفا بعتقك اياه »[20].

ولا يفوتنا ان نتناول الوجه الحضاري الآخر لمجتمع الحاضرة . فاذا كان اصحاب المهن والحرف يمثلون الطور الذي بلغه المجتمع في نشاطه المادي ، فان حَمَلة العلم والادب يمثلون قيم العصر الفكرية والثقافية فيما رووا او كتبوا او درسوا او جادلوا فيه . وهذا ما يجدر بنا الوقوف عنده لتكتمل صورة الحاضرة .

لعل ابرز ظاهرة في المجتمع العلمي في عصر الجاحظ انه مجتمع منفتح ، لا اثر للطبقية او التمييز فيه . فلم يكن العلم مقصورا على جماعة دون سواهم ، بل هو مشاع لمن يطلبه ، بغضّ النظر عن السّن او الأصل او الطبقة أو الحرفة . فعامّة العلماء والدارسين للغة والحديث والكلام وبقية العلوم ، يقبلون على التعلّم مهما بلغت بهم السّن وأينما كانوا في السلّم الاجتماعي ، اذ لا حدود تفصل بين طالبي العلم غير مقدار رغبتهم ومدى تقديرهم لحق العلم . وبين ايدينا شواهد لا تكاد تحصى على هذه الحقيقة .

فالكسائي يطلب النحو في مرحلة متأخرة من عمره ويرتحل في طلبه من الكوفة الى البصرة ويجلس في حلقة الخليل بن احمد . وسيبويه الذي يطلب الحديث في اول حياته يأخذه عن حماد بن سلمة يعتزم دراسة النحو فيمضي ويلزم « مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين »[٢١] والزجاج له قصة طريفة في بدء اهتمامه بالنحو، اذ كان قبل ذلك يخرط الزجاج فاشتهى دراسة النحو فقصد المبرد ولزمه ، على ان يدفع للمبرد درهما يوميا ـ وهو نحو ثلثي ما يكسبه الزجّاج في يومه ، وهكذا اصبح من المختصين في النحو .[٢٢]

وان دل هذا على شيء فانما يدل على انعدام الطبقية بين العلماء ، فليس العلم وقفا على جماعة معينة بل يناله كل من يرغب او يظهر قابلية معينة فيه ، بغضّ النظر عن حرفته او مرحلة عمره او حتى دينه . وقد شاعت في المجتمع الاسلامي علوم معينة كان يتقنها النصارى دون سواهم ، كالطب والترجمة .

ويتفاوت علماء هذا العصر في طبيعة كسبهم ، لكن اكثرهم كانوا يمارسون مهنة او حرفة من الحرف التي يمارسها الناس في حياتهم المدنية . ولم تقف المادة حائلا بين العالم وبين ممارسة نشاطه العلمي . وربما تعرض بعضهم للحاجة الشديدة والجوع . يروي الجاحظ عن النظام انه قال : « جعت حتى اكلت الطين ، وما صرت الى ذلك حتى قلبت قلبي اتذكر ، هل بها رجل اصيب عنده غداء او عشاء فما قدرت عليه »(٢٣)

على ان اكثر علماء هذا العصر كانت لهم حلقات او مجالس علمية ، كما انهم اشتغلوا بتعليم اولاد الخاصة او العامة . ويتفاوت العلماء ـ مع ذلك ـ في نظرتهم الى فكرة الكسب بالعلم ، فبعضهم كان يأنف حتى من قبول جائزة الخليفة ويعيش عيشة المحتاجين (وقد اشتهر الخليل بن احمد بهذه الصفة) . . ويروي ، بهذه المناسبة ، عن ابي العباس ثعلب ، قال :

« قال لي محمد بن عيسى بحضرة محمد بن عبد الملك : نحن نقدمك لتقدمه الأمير . فقلت : يا شيخ ، اني لم اتعلم العلم لتقدمني الامراء ، وانما تعلمته لتقدمني العلماء »(٢٤)

وحينما يتناول الجاحظ طبقة المعلمين والمؤدبين في عصره يعيب على معلمي الصبيان ضعف همتهم وقلة قدرهم عند انفسهم . فقد يكون واحدهم ملما بكل فروع العلوم من نحو وعروض وحساب وقراءة للقرآن ، لكنه يقنع بستين درهما ، بينما لا يرضى رجل ذو بيان وحسن تصرف ان يعلم بألف درهم .

ويمتاز عصر الجاحظ بظاهرة مهمة كان لها شأنها في الحياة العلمية والادبية ، لا سيما في نشاط حركة التأليف وفي انتشار الكتب في مجالات لا حدود لها . وأعنى بهذه الظاهرة نضوج الكتابة وشيوع ادواتها وتوفرها لجميع العلماء الذين يرغبون في استعمالها وسيلة لنشر علمهم ومعارفهم . فأصبح متاحا

للمؤلف ان يتصل بقرائه عن قرب وان يوجه اليهم كتاباته ويعني بمختلف مستوياتهم العقلية وان يجعل كتبه ـ اذا شاء ـ واسطة للتعليم . لكن العلماء يتفاوتون في موقفهم من تفضيل الكتابة على الاتصال الشخصي والسماع المباشر . فالبعض يرى ان الكتاب احفظ للعلم وأوثق معتمدا ، بينما يرى آخرون الاعتماد على السماع والحفظ . وقد اشتهر العالم النحوي احمد بن يحيى ـ ثعلب ـ بسعة حفظه حتى قيل عنه انه كان « لا يمس كتابا ، اتكالا على حفظه ، وثقة بصفاء ذهنه »، بينما كان ابو سعيد السكري المعاصر له « كثير الكتب جدا ، فكتب بيده ما لم يكتبه احد . فكانا في الطرفين ـ كما يقول ياقوت ـ لأن ابا سعيد كان غير مفارق للكتاب عند ملاقاة الرجال »[٢٥]

ولقد كان لاستعمال الكتابة ، وسيلة من وسائل التعليم ، نتائج مهمة على طبيعة انتشار العلم حتى لقد خشي بعض العلماء ان تشيع كتبهم وتقرأ ، فيستغنى بها عنهم ، فكانوا يتعمدون وضعها موضعا صعبا لتبقى الحاجة معها اليهم . يقول الجاحظ :

« قلت لأبي الحسن الاخفش ، انت اعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضا ولا نفهم اكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ . قال : انا رجل لم اضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني اليه ، قلت حاجتهم الي فيها . وانما كانت غايتي المنالة ، فأنا اضع بعضها هذا الموضوع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا . وانما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت »[٢٦]

لقد كان انتشار التعليم ونشاط الحركة العلمية في القرن الثاني للهجرة ، سببا من اسباب تعدد المذاهب والمدارس العلمية والاتجاهات العقلية . وتعد المحاجات العقلية القائمة على اسس من المنطق والجدل مظهرا من اهم مظاهر

الخلافات العلمية . وتلعب العلاقات بين العلماء دورا مهما في توجيه الحركة العلمية . فكلما زاد الاحتكاك بين العقليات المتباينة والمذاهب المختلفة ، زادت حدة الشرارات المتبعثة عن هذا الاحتكاك ، فدفعت من ثم بالحركة العلمية قدما الى الامام .

ولعل من اهم آثار هذه المحاجات العلنية في الحركة العلمية ، ما نلمسه من حرص العلماء وزيادة توقيهم في البحث والنظر وفي التعبير عن آرائهم ، خوفا من الزلل ، لأن مناوئيهم يقفون لهم دائما بالمرصاد ، ولا سيما اذا دونت هذه الآراء وانتشرت في الناس مكتوبة ، حينذاك يجب ان يكون الحذر والتوقي اشد ، لأن الخطأ المكتوب اصعب على التصحيح من خطأ شفوي يسمع ولا يدون . ولعل الجاحظ خير من عبر عن هذا الامر - وهو الخبير به - بقوله :

« وينبغي لمن كتب كتابا الا يكتبه الا على ان الناس كلهم له اعداء وكلهم عالم بالامور ، وكلهم متفرغ له »(٢٧)

والجاحظ قد خبر من هذا النقد والتتبع ما قل ان خبر مثله احد . ولذا فهو يتهم نفسه قبل ان يتهمه خصومه ، فيقول معتذرا بملاحظة جاحظية اصيلة :

« وأنا أعوذ بالله ان أغرّ نفسي عند غيبة خصمي وتصفح العلماء لكلامي . فأني اعلم ان فتنة اللسان والعلم اشد من فتنة النساء والحرص على المال »(٢٨) وفي ظني ، ان هذا لا يكون الا في عالم شغل بالعلم عن كل ما عداه .

فالرقابة العلمية - ان صح التعبير - وهي رقابة الخصوم ، خير وازع ضد الغرور ، تفرض نفسها على العالم في هذا العصر الذي نشطت فيه الحركة العلمية مصحوبة بخصومات ومعاندات وتحديات . ولعل هذه الرقابة اشد على الكاتب من اية رقابة اخرى ، لأن من اختلى بالحديث دون ناقد متتبع ، غرّه من حديثه ما يغرّ صاحب فرس يجريها وحدها في الحلبة ويعجب بسرعة جريها .

والحق ان سرعتها لا تعرف، الا اذا اجراها مع الخيول . كذلك صاحب الفكرة لا يعلم مقدار صوابها او خطأها الا بالمناظرة حينما يضعها على المحكّ مع افكار مناظريه . . . ويستشهد الجاحظ ـ في هذا المعنى ـ بقول الشاعر :

ان الحديث تغرّ القوم خلوته حتّى يلجّ بهم عيّ واكثار

وتعدّ القدرة على المناظرة والمحاجة صفة لازمة للعالم الذي يتمتع بالقابليات العلمية . وذلك لأن العالم الذي اعتاد ان يسلّم له بالأمر دون نقاش او سؤال أوشكّ فيما يقوله ، يثق من نفسه بأمور لا تستحق ان يوثق بها ، فيضلّ عن الحقيقة ويُضل ، ولعل المتكلمين من اوائل العلماء الذين التفتوا الى هذه الحقيقة ، فعنوا بالجدل عناية ما بعدها عناية ، وامتاز فيهم جماعة بالقدرة الفائقة على استعمال اداة الجدل العلمي ، المنطق . ولقد قيل عن النظام انه كان من اقدر المعتزلة على الجدل . يروي الجاحظ عنه انه جرت بينه وبين ابي شمر ، احد أئمة المرجئة ، مناقشة في دار ايوب بن جعفر بن سليمان العباسي ، وهو من الموالين لأبي شمر . يقول الجاحظ :

« وكان ابو شمر اذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه انما يخرج من صدع صخرة». لكن النظام اضطره بالحجة « حتى حرك يديه وحل حبوته وحبا اليه حتى اخذ بيديه . وفي ذلك اليوم انتقل ايوب من قول ابي شمر الى قول ابراهيم النظام »[٢٩]

ويعلق الجاحظ على هذا قائلا :

« وكان الذي غرّ أبا شمر وموّه له هذا الرأي ان اصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويميلون اليه ويقبلون كل ما يورده عليهم ويثبته عندهم . فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم اياه وخفت مؤونه الكلام ، نسى حال منازعة الأكفاء ومجاذبة الخصوم »[٣٠]

فالتحدي الذي يجابهه العالم خير حافز له على مراجعة ما يأخذ به ويسلم له . والشك عند المتكلمين اول ما يبدأ به للتوصل الى اليقين . ولعل اكثر العلماء تعرضا للتحديات والخصومات ، اولئك الذين كانت لهم وجهة نظر معينة او كانوا ينتمون الى مذهب من المذاهب الفكرية او الفقهية او العلمية . . . والعلماء يشكلون الجانب الحي من الحركة العلمية ، فمواجهاتهم تكشف لنا عن جوانب طريفة للموضوعية العلمية او العصبية التي قد تجني على الطرفين . ولعل أكبر ما تخشاه البيئة العلمية ، غلبة الروح العامية على امثال هذه المنازعات . ولقد وعى الجاحظ هذا الجانب وعيا تاما حينما عرض لنا صورا من تحاسد العلماء او استدعائهم للعامة وتأليبهم لهؤلاء من اجل الغلبة على خصومهم . والعامة تحكم بالظاهر وتحكم بعاطفتها دون الالتزام بمنهج علمي وفكري ، « فليس عندهم الا الاقدام على التصديق المجرد او التكذيب المجرد » كما يقول ابو عثمان(٣١) . ولذلك فقد يتوقى العلماء تدخل العامة في مناقشاتهم ، لا سيما تلك التي كانت تجري على مسامع من العامة في المساجد . ومن جهة أخرى ، حاول بعض العلماء ان يستغل هذه العاطفة وهذه الحماسة التي تصدر عن العامة في حكمها ، فذهب الى اثارتها متعمدا ، واستطاع ان يغلب خصمه بالحق او بالباطل ، بتأييد العامة له . ويشكو الجاحظ من طبقة العلماء التي تستدعي عواطف العامة بغير حق .

لقد كان الجاحظ حريصا على ان يكون زمام الامر في يد اصحاب العلم والمعرفة ، لكي يقودوا العامة ويوجهوهم ، لا ان يغرروا بهم ويضلوهم . وأفضل من يستطيع ذلك ، في نظر الجاحظ ، المتكلمون ، لا سيا المعتزلة .

ان بيئة اهل العلم هى التي حملت ثقافة العصر وحفظت تراث العربية ، لغة وشعرا وقولا ومثلا وحكمة . . . وفيها تتمثل جميع النشاطات الفكرية التي احتوتها هذه اللغة ، رغم ما نشأ بين فئاتها من صراعات ومنافسات ، اختلفت دوافعها

وحوافزها ، فردية كانت ام عصبية جماعية . . . والجاحظ حريص على ان ينقل لنا صورة العصر بدقة وعناية ، لكنه لا يقـل حرصا في تحديد موقفه ورأيه هو من كل ما يرى .

ولا حاجة بنا الى القول بأن حرص الجاحظ على تراث العربية يأتي في مقدمة اهتماماته ، لا يتخلى عنه مصدرا ثرا يستقي منه ، مهما تشعبت الموارد والمصادر تحت ناظريه ، يونانية كانت أو فارسية أو هندية أو سواها جميعا .

لقد وعى الجاحظ اهمية هذا الموقف في عصره ، ذلك ان التراث العربي قد تعرض بعامته الى الشك والتهجم نتيجة التعصب الشعوبي . ولذلك ربما وجـد الجاحظ نفسه احيانا مضطرا إلى اتخاذ موقف المدافع عن هذا التراث ، باحثا ومستقيا اصوله التـي انكرهـا عليه بعض المتعصبـين عليه . ولا ينسيه هذا الدفـاع ، مع ذلك ، ان الأمم جميعا لها فضائل ومميزات تميزها في فكرها وتراثها . فأظهار مفاخر امة لا يعني بالضرورة طعنا في سواها . وهكذا كان الجاحظ حريصا على اظهـار مفاخر العرب بعيدا عن الوقوع في العصبية ، محافظا على توازن مدهش وموضوعية فذة ، استحق بها ان يكون معلم الاجيال ، حامـلا تراث العـربية بكل اعتـزاز ووعي .

الحواشي

١ ـ البيان والتبيين ٣/ ١٦ .

٢ ـ نفسه ٢٤ .

٣ ـ ر . مناقب الترك ، رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون): ١/ ٦٩ .

٤ ـ الحيوان ٣/ ٢٦٨ .

٥ ـ نفسه ٦/ ٢٩ .

٦ ـ البيان والتبيين ٣/ ٢٨ ـ ٢٩ .

٧ ـ الحيوان ٤/ ١٠٠ .

٨ ـ البيان والتبيين ٢/ ١٤٥

٩ ـ نفسه ١/ ١٧١ .

١٠ ـ الحيوان ٥/ ٣٤٠ .

١١ ـ نفسه ٤|١٦٩ .

١٢ ـ نفسه ٦/ ٧١ ـ ٧٢ .

١٣ ـ الحناطون : بائعوا الحنطة ـ كما قال المحقق : نفسه ٤/ ٤٣٤ ـ ٣٥ .

١٤ ـ ر . فخر السودان : رسائل الجاحظ ١/ ٢٢٤ ـ ٢٥ .

١٥ ـ الحيوان ٣/ ٤٣٥ .

١٦ ـ نفسه .

١٧ ـ البخلاء (تحقيق طه الحاجري): ١٤١ .

١٨ ـ الحيوان ٦/ ٣٦٧ .

١٩ . ر . في النابتة : رسائل الجاحظ ٢/ ٢١ ـ ٢٢ .

٢٠ ـ نفسه .

٢١ ـ ثعلب : مجالس العلماء ١٥٤ ـ ٥٥ .

٢٢ ـ ياقوت : معجم الادباء ١/ ٣٠ .

٢٣ ـ الحيوان ٣/ ٤٥١

٢٤ ـ معجم الادباء ٥/ ١١٢

٢٥ ـ نفسه ٥/ ١٠٧ .

٢٦ ـ الحيوان ١/ ٩١ .

٢٧ ـ نفسه ١/ ٨٨ .

٢٨ ـ نفسه ١/ ٢٠٧ .

٢٩ ـ البيان والتبيين ١/ ٩١ .

٣٠ ـ نفسه .

٣١ ـ الحيوان ٦/ ٣٦ .